

أخلاق القرآن

الصبر

للدكتور عبد الوهاب عزام

الصبر خلق يصمم للنفس من اليأس إذا طال بها الطريق إلى غاياتها ، ومعناها من الارتداد إذا سدّت العقبات سبيلها ، ويكبر بها عن الجزع إذا نزلت بها من أحداث الزمان نازلة . في الحياة أعمال شاقة لا يستطيع الاضطلاع بها إلا الصابرون ، وفيها غايات بعيدة لا يبلغها إلا من صبر على مشقة الطريق وبعد المدى

والأخلاق للفاضلة تنأى بصاحبها عن شهواته ، وتملوه عن سفاسفه ، وتكبر به على الهوان ، وتسوم للنفس ضرراً من الصدود عن الهوى ، والنفاه عن الشهوة ، ولا يتخلق بهذه الأخلاق إلا أهل الصبر . وفي الحياة عقائد حق ومذاهب خيرة ينفر منها الناس أولّ عهدهم بها ، وينال الدعوة إليها السخرية والأذى والألم في النفس والنفوس في المال . فلولا الصابرون ما دعا إلى هذه العقائد داع ، ولا ذهب هذه المذاهب أحد الصبر توطين النفس على الشاق والكاره ، والإيابة على الخطوب ، والاستكبار عن الخنوع للعصائب ، والثبات في الموقف الضنك ، والمقام الهائل ، أو المسير إلى الناية المخوفة حتى يستوفى التمثل أطواره ، ويبلغ نهايته ، وينجح الطلب ، ويحمد الدأب

والصابرون رواسي الأمم كلما زلزلتها الخطوب ، وسكينتها إذا طارت من الذعر القلوب . إذا طاشت الأحلام في مآزق الحرب صبروا حتى يتباج للنصر ، وإذا خارت العزائم في معارك الحياة دأبوا حتى يشرق الحق . والصابرون قادة الأمم إلى الحق والخير والظفر يسلكون إليها الأهوال حين ينكص غيرهم فرحاً ، ويستقيمون على الطريق حين يحيد غيرهم بأساً ، ويواصلون المسير حين يقف من سواهم مجزأ ، ويحتملون الكاره حين تنود بكل عاجز ، ويبسّمون للعصائب حين تزول كل رعييد . هم الذين يصلون مبادئ الأعمال بناياتها ، ومقدماتها بنتائجها وإن شق العمل وطال الطريق . هم الذين ينصرون كل دعوة إلى الحق ،

وكل مذهب في الخير وإن عظم ما يلقاهم من المحن ، وما يمترضهم من المكاره

ومن للكلام المأثور : للصبر على الطلب عنوان للظفر . والصبر في المحن عنوان للفرج

والصبر هو تجلي النفس الإنسانية في أكل صفاتها وأشرف درجاتها ، تجلي النفس الإنسانية في عظمتها تمتز بقواها ، وتستكبر على الأحداث ، ولا تبالى الغضب واللمنت ، ولا تخشى الهلاك حتى تبلغ دعوتها وانحة وتؤدي واجبها كاملاً

ولست أعرف فضيلة أؤكد للقرآن الدعوة إليها توكيده الدعوة إلى الصبر ، إذ كان عماد كل نجاح ، وقوام كل جهاد ، ونظام كل عمل صالح ، وقرين كل خلق فاضل

الصبر في القرآن قرين الحق لأن الحق لا ينصر إلا بالصبر . قال : « والمصر إن الإيمان لي خسر إلا الدين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر »

والصبر قرين العمل الصالح إلا صبر النفس عما يزئ لها من الشهوات ، وإقامتها على منهاج الفضيلة الذي يحرمها كثيراً مما نود . يقول القرآن : « إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير »

وقد جعل القرآن للكريم الصبر وسيلة إلى الإمامة والهداية فمن لم يصبر لم يقوم نفسه ، ولم يستطع الدعوة إلى الحق والمسير إليه والجهاد في سبيله ، قال : « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون »

وقد أعلى درجة للصابرين وأبان فضل الصبر أعظم إبانة إذ قال : « واصبروا إن الله مع الصابرين » وحسبك بمن كان الله تعالى معه يسدد قوله وعمله وينصره ، قد ذلت له كل العصاب وخمن له كل ظفر . إن الله مع الصابرين لأنهم بصبرهم يستجيبون لدعوة الله ويسمرون في سبيله على قوائمه حتى يبلغوا ما وعدهم به ، ومن سار في سبيل الله إلى دعوة الله فأحير به أن يوقن بالنجاح وأحير به أن ينال النجاح غير منقوص

وجعل القرآن الصبر وسيلة إلى إدراك آيات الله في خلقه . وهل كشف الباحثون عن الحقائق إلا بالصبر على الطلب والدأب في البحث ؟ قال القرآن في أكثر من آية : « إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور »

وبين القرآن أن للصبر عدة المؤمنين في جهادهم في هذه الحياة إذ قال : « يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين » أمرهم أن يفزعوا إلى الله فيما ينوبهم من النوائب ، فيتوجهوا إليه بالصلاة ويصبروا به على الكروه . ونعم هذان عوناً على كل خير .

كما جعل للصبر في آخر درجات الفضائل حين عددها في آية اللبر فقال: ليس للبر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب، لكن للبر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والنبیین وآتى المال على حبه ذوقاً للتقربى واليتامى والمساكين وابن السبيل وفى الرقاب وأقام للصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس . أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون »

وبين القرآن أن الله سبحانه يحب الصابرين الذين يثبتون على الشدائد ، ولا يهنون لما يجرّبهم من النوائب : « وكأين من نبيّ قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب للصابرين » وحسبك بمحبة الله نجحاً وفلاحاً وسعادة

والصبر قوة أعظم من قوة المدد ، تغلب به الفئة القليلة الفئة الكثيرة . قال فى قصة طالوت وجالوت : « فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لليوم بجالوت وجنوده . قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ، والله مع الصابرين . ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . فهزمهم باذن الله » . وكذلك أمر القرآن المسلمين أن ياتوا عدوم الأ أكثر عدداً وهم صابرون ، وبشرهم بأن الجماعة منهم تغلب عشر أئامها بالصبر ، وجعل الصبر أكثر من تسعة أمثال المدد غناء فى الحرب . قال فى سورة الأنفال :

« يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال . إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون . »

ولما أراد أن يخفف عن المسلمين هذا التكليف أمرهم بأن تلقى الجماعة منهم مثلها فقال : « الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً ، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ، وإن يكن

منكم ألف يغلبوا أثنين باذن الله والله مع الصابرين . » فأقل مراتب الصابرين أن يغلبوا ضعفهم . والحق أن للمدد لا يثبت للصبر ، وأن كثرة المدد ناشئة إذا خذلها الصبر ، وأن قلته ظافرة إذا أبدها للصبر . وربما تغلب للفئة الصابرة مثلها ، وربما تغلب عشر أمثال أو مائة مثل . وحوادث التاريخ على ذلك شاهدة وأما فى غير الحرب فالواحد الصابر يدعو إلى طريقته ، ويصبر على دعوته ، ويحتمل فى سبيلها ما يلقى من عنت وأذى وسخرية حتى يغلب بصبره الأمة للكبيرة ويقودها إلى الخطة التى يدعو إليها

وأما جزاء الصابرين فالظفر فى الدنيا والطمأنينة التى تلقى العبدان ثابرة راضية « وبنا الله تعالى وحسن الثواب فى الآخرة . يقول القرآن الكريم : « وبشر الصابرين الذين إذا أصابهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » . وقال : « أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا » . وقال : « ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » وقال فى جزاء الآخرة :

« والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ، ويدرون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم . فنعم عقبى الدار »

وللسوفية من المسلمين تلميح فى الصبر وتربية عليه جديران بأهل القرآن الذين استمعوا له واهتدوا بهديه ، وقد كانت أقوالهم وأفعالهم أمثلة فى الصبر

يقول الجنيد : الصبر نجرع المرارة من غير تمييز . وقال ذوالنون المصرى : الصبر التباعد عن المخالفات ، والسكون عند نجرع غصص البلية ، وإظهار الفنى مع حلول الفقر بساحات المشية . وقال ابن عطاء الله السكندرى : الصبر الوقوف مع البلاء بحسن الأدب . وقال أبو عثمان : الصبار الذى عود نفسه الهجوم على السكاره . وقال عمرو بن عثمان : الصبر هو الثبات مع الله تعالى وتلقى بلائه بالرحب والدعة . وقال أبو محمد الجيرى : للصبر ألا يفرق بين حال الندمة والمنة مع سكون الخاطر فيهما ، والتصبر هو السكون مع البلاء مع وجدان أفعال المنه . وقالوا :